



مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

إيران ودول المغرب المسألة الشيعية

الكتاب 115 يوليو (تموز) 2016

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

الشيعة في المغرب وسائل الاستقطاب ومسارات النخب

محمد الكضيض*

كثيرة هي الأسباب التي تقف حجر عثرة أمام الباحثين عن أصول وخصوصيات المذهب الشيعي، خصوصاً في الدول التي تتبنى التسنن كمذهب رسمي، مما يجعل معظم الكتابات حول هذا الموضوع سطحية ولا تتجاوز ما يردده الإعلام المناوئ عادة، أو ما ورد في بعض المصادر التاريخية والفقهية القديمة مما كانت أيضاً تحكمه رؤى سياسية ومذهبية معينة.

(*) أستاذ وباحث في الفلسفة، وهو رئيس الجمعية المغربية للفاعلين في التنمية الاجتماعية.

وفي ظل التعقيم الذي يعاني منه هذا المذهب منذ قرون، مع غياب أو ندرة الكتاب الشيعي في الساحة الثقافية العمومية، والتكتم الذي ما زال يمارسه أتباع هذا المذهب مما يسمى عندهم بالتقية التي يرفعها بعضهم إلى مرتبة العقائد، في حين يتبناها آخرون كخيار مرحلي فرضته ظروف سياسية معينة، خصوصاً في ظل الدولتين الأموية والعباسية، فهذا يستدعي من الباحثين اليوم بذل المزيد من الجهود من أجل كشف الالتباس حول الكثير من المواقف والأحكام التي قد تُبنى أحياناً على مغالطات واتهامات لا أساس لها في الواقع (مثل ما يردده الكثير من العامة بأن الشيعة يقولون بأن جبريل قد أخطأ أو خان الأمانة، وعض أن يبلغ الوحي لعلي اختار محمد (ص) لكبر سنه!).

وأمام الانفتاح الكبير الذي يسّره تطور وسائل الإعلام، السمعي والبصري، وخصوصاً مع الثورة التي عرفتها وسائل التواصل الاجتماعي، فقد بات من الضروري تغيير زوايا الرؤى من أجل فهم واستيعاب اختلافاتنا مع الآخر، الذي ينتمي إلى دائرة الإسلام، في ضوء تزايد الاحتقان الطائفي الذي بات يهدد أنموذج التعايش السلمي في عدد من الدول الإسلامية بين أبناء الوطن الواحد (العراق، سوريا، اليمن، البحرين...).

ويبقى التصور العقائدي الذي يتبناه أتباع هذا التيار، من أول المباحث التي يجب الوقوف عندها لحسم هذا الخلاف الإشكالي، وذلك مما يترتب عليه من أحكام ومواقف قد تتطرف إلى حد تكفير المخالفين، يليه في ذلك المصادر التي يعتمدها رموز وأتباع هذا الخط في الاجتهاد والدفاع عن المذهب، وكذا وسائل الاستقطاب التي ينتهجها الدعاة والأتباع لإقناع المخالفين، خصوصاً من أهل السنة، مع إطلالة على أهم المسارات التي عرفتها ظاهرة التشيع، وأهم الأسماء التي تبنت هذا الخط بالمغرب، مع الختم بتقديم نموذج من إحياء الطقوس الخاصة بالمذهب، وذلك من خلال تجربة شخصية رفقة بعض الموالين (المتشيعين المغاربة).

أهم مرتكزات العقيدة

أ- الإمامة

يحتل مفهوم الإمامة مكانة مركزية في التصور الشيعي، إذ يعد من أصول عقائد المذهب التالية للنبوّة، بحيث لم تكتمل رسالة النبي محمد إلا بتولية الإمام علي بن أبي طالب على المسلمين في بيعة الغدير⁽¹⁾، حيث يعد هذا الحديث من أبرز الأدلة التي يتمسك بها الشيعة في مسألة خلافة الرسول والذي لم ينكره كبار علماء السنة بمن فيهم مشايخ السلفية كابن تيمية، وقد أخرج الإمام الحاكم في مستدرکه على شرط الشيخين، إلا أن الاختلاف بين الطرفين وقع في تأويل الواقعة.

ب- ولاية آل البيت

عندما يتكلم الشيعة عن أهل البيت فهم يقصدون اصطلاحاً الخمسة من أصحاب الكساء الذين وردوا في حديث مسلم⁽²⁾، وهم النبي محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، في الوقت الذي يعارض به بعض أهل السنة هذا التعريف من الجانب اللغوي، من حيث إن تعريف أهل بيت الرجل يشمل أيضاً نساءه، ولكون آية التطهير التي يحتج بها الشيعة على عصمة أهل البيت جاءت بعد آية تتحدث عن نساء الرسول، حيث يقول تعالى: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقَلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33)»⁽³⁾.

(1) انظر: البخاري ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي.

(2) جاء في صحيح مسلم بالإسناد إلى صفية بنت شيبة، حيث قالت: خرج النبي (صلى الله عليه وآله) غداً وعليه مرط مرخل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: «... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» صحيح مسلم، (4/1883)، حديث (2424)، طبعة بيروت- لبنان.

(3) سورة الأحزاب، الآية 33.

ج- المهدوية

قد تتفق معظم الأديان والمذاهب على مخلص ينتشل أتباعها من الظلم والهوان، ليظهرهم على مخالفيهم، ويبسط العدل بعد طول انتظار. بيد أن هذا الاعتقاد يحتفظ لدى الشيعة بمكانة خاصة لا تضاهيها التصورات الأخرى لدى باقي الأديان والجماعات. فمهدي الشيعة قد ولد لأبيه الإمام الحسن العسكري من جارية رومية اسمها نرجس، وعاش مدة الغيبة الصغرى التي قاربت (70) سنة بين وكلاء أبيه حسب الروايات الشيعية قبل أن يختفي عن الأنظار في الغيبة الكبرى التي تمتد إلى آخر الساعة، حيث سيظهر مرة أخرى ليملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً⁽⁴⁾. ولذلك نرى الكثير ممن ادعوا المهدوية عبر التاريخ الإسلامي، خصوصاً في الأوساط الشيعية، قد نجحت خططهم واستمالوا عامة الناس لنصرتهم وفرض سلطتهم، كالمهدي العباسي، وعبيد الله المهدي الفاطمي، ومحمد بن تومرت الموحي، ومهدي السودان دون الحديث عن ادعوا المهدوية من المعاصرين.

مسارات التشيع بالمغرب... من الحركة الإسلامية إلى التشيع

بالرغم من أن التشيع في المغرب قد ارتبط بدول بسطت نفوذها السياسي يوماً على البلاد، كالدولة الإدريسة التي ينسب إليها الأشراف الأدارسة من آل البيت، والدولة الفاطمية التي انطلقت تحقيقاً من شمال المغرب جهة كتامة، يشهد على ذلك تراث كبير يغني طقوس التدين والعادات والتقاليد المغربية، مما فصل فيه كثيراً الباحث المغربي عبد اللطيف السعداني الذي درس في طهران سنوات الستينيات⁽⁵⁾.

إلا أن حركة التشيع المعاصر، في المغرب، لم تظهر بوادرها إلا بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران، وانتهاج الخميني سياسة ما عرف بتصدير الثورة، حيث وصلت

(4) انظر كتابي: تاريخ الغيبة الصغرى، وتاريخ الغيبة الكبرى، لمؤلفهما آية الله العظمى السيد محمد صادق الصدر، دار التعارف للمطبوعات.

(5) انظر مثلاً: عبد اللطيف، السعداني، حركات التشيع في المغرب ومظاهرها، مجلة المنهاج، العدد (27)، خريف 1423هـ/2002م، ص146-166.

رياحها إلى المغرب مع مجموعة من الشباب الحركي من داخل الشبيبة الإسلامية، الذين تحمسوا لأفكارها ومواقفها من الأنظمة الاستبدادية. وقد كان زعيم الحركة -آنذاك- عبدالكريم مطيع يتبنى أيضاً فكراً ثورياً ذهب به إلى حد اعتماد العمل المسلح، مما سرع وتيرة الانشقاقات التي وقعت داخل جسد الحركة بعد اغتيال القيادي الاتحادي عمر بن جلون، وهروب القائد مطيع إلى ليبيا. فقد قبض على عدد من أعضاء الشبيبة وهم يوزعون منشورات تدعم وتروج أفكار الثورة الإيرانية، مما يفسر إدخال الحسن الثاني الإمام الخميني قائد الثورة الإيرانية ضمن أعداء المغرب والمتربصين باستقراره، وقد أشار إلى ذلك في خطاب مباشر، كما أشرف على إصدار فتوى تكفر الخميني سنة 1980، انطلاقاً من أحد أقواله التي يتناول فيها -حسب ما جاء في فتوى رابطة علماء المغرب- على مقام الملائكة والأنبياء، حيث جعل مكانة المهدي المنتظر فوقهم جميعاً.

وهكذا بدأ التشيع السياسي، بالافتتان بشعارات الثورة الخمينية، وكان من جملة المجموعات التي انبثقت من الشبيبة الإسلامية، جماعة من الشباب الذي أسسوا «حركة الاختيار الإسلامي» ذهب بعضهم إلى حد التواصل مع عدد من القيادات والرموز الإيرانية آنذاك. ولعل الكثير منهم قد التحق فيما بعد بـ«الحركة من أجل الأمة» وحزب «البديل الحضاري» مما يفسر سر الحل الذي طاول هذا الحزب، حيث كان من جملة الاتهامات التي وجهت إلى قيادته السيد مصطفى المعتصم فتح باب الحزب للمتشيّعين، مما دفع زميله السيد محمد المرواني، الذي يقتسم معه المسار الحركي نفسه، إلى التحقيق في أمر الملتحقين بحزب «الأمة» فيما بعد، على الرغم من أنه أيضاً قد تعرض للمنع والتضييق للسبب نفسه⁽⁶⁾.

مما حدا بعدد من الشباب المتشيّع -فيما بعد- إلى تأسيس نواة «الخط الرسالي» من خلال عدد من المبادرات التي انطلقت من الفضاء الافتراضي أولاً، قبل الخروج إلى العلن والدعوة إلى تأسيس جمعية «الرسالين التقدميون» التي قوبلت

(6) في حوار أجرته جريدة «الأيام» مع امحمد أمين الركالة، الناطق الرسمي باسم حزب «البديل الحضاري» عن الأسباب الحقيقية وراء امتناع السلطات عن الترخيص للحزب طوال المدة الصارمة قال: (لقد تبين لنا من خلال الحوار مع وزارة الداخلية أن المشكل الأساسي مرتبط بالمسألة المذهبية لحزب «البديل الحضاري»، جريدة الأيام، العدد (188)، 12-15 يونيو (حزيران) 2005.

بالرفض إلى يومنا هذا، في ظل ترصد أنشطة هذا التيار الذي يتزعمه المحامي عصامي الحميدان، الذي يعد أيضاً وكيل المرجع اللبناني الراحل السيد محمد حسين فضل الله.

وقد جاء تأسيس مؤسسة الخط الرسالي للدراسات والنشر في الإطار نفسه، بالاعتماد على القانون التجاري بعدما تعذر تأسيسها من خلال قانون الحريات العامة، كما تم الإعلان عن مرصد حقوقي ينشط أعضاؤه في المطالبة بحرية المعتقد في المغرب رفقة عدد من الجمعيات الحقوقية وأتباع الأقليات الأخرى في البلد، وخصوصاً المسيحيين الذين عانى بعض نشاطهم في محطات متفرقة خلال العشرية الأخيرة مثلما عانى منه الشيعة سنة 2009 بعد قطع المغرب علاقاته مع إيران على خلفية تداعيات ملف البحرين. وأخيراً أعلن أتباع هذا الخط عن نيتهم الالتحاق بالعمل السياسي، حيث أبدوا رغبتهم بالانضمام إلى الحزب الاشتراكي الموحد قبيل الانتخابات الجماعية الأخيرة بعد مفاوضات ماراتونية مع عدد آخر من الأحزاب القديمة والجديدة كحزب «الديمقراطيون الجدد».

وهكذا يتبين أن النهج الحركي ظل يطبع تحركات المتشيعين القادمين من التيارات التي انشقت عن الشبيبة الإسلامية. وفي المقابل نجد أن هناك فريقاً آخر من أبناء الحركة الإسلامية، وهم العدليون، قد تأثر بما ذكره شيخهم الراحل عبدالسلام ياسين حول ثورة الإمام الخميني، في معرض حديثه عن القومة في كتابه المنهاج النبوي: تربية وتنظيماً وزحفاً، والذي يعتبر دليل جماعة العدل والإحسان، وما كتبه أيضاً حول بعض رموز الشيعة كالإمام الحسين في ثورته على يزيد بن معاوية، وزيد بن علي وأخيه محمد النفس الزكية وأخيه إدريس وإبراهيم ويحيى، وكلهم واجهوا الحكام الظلمة من بني أمية وبني العباس، وقاتلوا حتى استشهدوا، وهم جميعاً من آل البيت⁽⁷⁾.

(7) نظرات في الفقه والتاريخ، ص 27-28-32. وانظر: رجال القومة والإصلاح.

حسن نصر الله... التجارة بالمقاومة

كما يلتمس العذر لبعض الأخطاء التي ارتكبت في الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني في كتابه الإحسان: «تصدر فتاوى مأجورة بتكفير الشيعة عامة، وإن كان الثوار الإيرانيون سجنوا علماء السنة واضطهدوا السنين... فالهيجان الثوري كان ولا يزال في كل مكان»⁽⁸⁾. ومع الانتصارات المدوية التي حققها حزب الله اللبناني ضد إسرائيل سنتي 2000 و2006 فقد تزايدت وتيرة التشيع داخل الجماعة، باعتراف أحد الإخوة الحركيين الذين التقيناهم خلال مسيرتنا داخل هذا الخط، ومن خلال حوارنا معه حول الموضوع، تبين أن التربية السلوكية التي خضع لها أفراد الجماعة ظلت توجه سلوكهم حتى بعد تشيعهم، حيث استبدلت بعض الأوراد التي كانوا يقومون بها بأوراد أخرى من داخل المذهب، كتلاوة دعاء كميل الذي يقرأ ليلة الجمعة، وقراءة الزيارات الماثورة والتعقيبات والمناجاة.. واستبدل تقديس الشيخ بتقديس الأئمة من أهل البيت وتبجيل المراجع المعتمدة داخل الطائفة.

ويبقى أصعب التحولات إلى المذهب الشيعي، هي تلك التي يعيشها المتشبعون بالفكر السلفي الوهابي، الذين يكفر معظمهم الشيعة، وذلك بناء على تصور التوحيد عندهم، والذي يخالفه حسب طروحاتهم العقدية الكثير من التمثلات والطقوس والممارسات التي يدين بها الشيعة. ومع ذلك فإن بعضهم يتشيع بمجرد إدراكه بعض التناقضات والأدلة التي يعرضها الموالون - كما سبق - انطلاقاً من المتون السنية، خصوصاً بعد انتشار الكثير من المناظرات والمحاضرات على اليوتيوب، والتي يعتمد أبطالها وأغلبهم من المتشيعين الجدد (المستبصرون) لإفحام الخصم على ما جاء في التراث السني، كمناظرات الشيخ اليمني عصام العماد، ومحاضرات الشيخ طارق المصري، وحتى بعض المداخلات التي يقوم بها بعض الدعاة الجدد كالشيخ عدنان إبراهيم، الذي انتصر غير مرة للأدلة الشيعية في ولاية أهل البيت كما انتقد رموز النظام الأموي والفكر السلفي.

(8) كتاب الإحسان، ص66، طبعة 1998.

من السلفي إلى الشيرازي

على غرار ما سبق مع أتباع التيارات الأنفة الذكر، فإن المشيخ القادم من التيار السلفي لا يشذ بدوره عن الإطار الفقهي الطقوسي الذي رسمه لنفسه من داخل الأيديولوجيا التي تحول عنها، إذ لا يتبنى معظمهم المذهب بالعقلية السلفية نفسها التي وجهت تدينه فيما سبق. فتجده -مثلاً- يسأل عن رأي الشرع وفق المذهب الجديد عن تفاصيل أموره الحياتية، ويحاول استصدار فتاوى من المراجع الكبار عبر النت أو الهاتف، من خلال القنوات الشيعية التي أصبحت تنافس القنوات السلفية اليوم. ويبقى الخط الشيرازي داخل البيت الشيعي الأقرب إلى هؤلاء؛ لكونه أكثر الخطوط المرجعية التزاماً بالنصوص (تيار إخباري) على خلاف باقي المراجع الأصولية في العالم الشيعي، كالسيد السيستاني الذي يحتفظ بحصة الأسد من بين المقلدين الشيعة عبر العالم، أو السيد محمد حسين فضل الله الذي يعتبر من أكثر المراجع انفتاحاً في العالم الشيعي، لمواقفه وأفكاره وطروحاته المتقدمة.

وأخيراً ومن خلال تجربتي الخاصة، فإن الكثير من المغاربة الذين صادفتهم في بداية الأمر (بين سنوات 2000 و2004) لم يكونوا على اطلاع بالخلافات القائمة بين عدد من المراجع الشيعية في المشرق، حول الكثير من الاجتهادات والقضايا والأحكام، لكن الأمور ستتغير فيما بعد، خصوصاً بعد ظهور عدد من دعواتهم ممن هاجموا علانية عدداً من رموز المقاومة والممانعة في العالم الشيعي، كياسر الحبيب وهو من أتباع المرجع العراقي صادق الحسيني الشيرازي من العراق، يملك قناة تبث من لندن، حيث طعن غير مرة في حزب الله وزعيمه حسن نصر الله، وكذا علي خامنئي مرشد الثورة الإيرانية، ولم يسلم من لسانه أيضاً عدد من المراجع في العراق ولبنان، وسوف تصل أصداء الخلاف إلى المغاربة من خلال الأزمة السياسية التي عاشها العراق بعد سقوط نظام صدام، واختلاف آراء المراجع هناك حول تبني العملية السياسية وجهاد المحتل، مما انعكس سلباً على مقلديهم في شتى أنحاء العالم.

وسائل الاستقطاب

من أهم وسائل الاستقطاب التي يعتمد عليها للترويج للمذهب، على مستوى الخطاب، نجد تركيز الدعاة على ارتباط المذهب بولاية أهل البيت ومودتهم ونصرتهم ضد من ظلمهم (تبني خطاب المظلومية)، وكذا الحلول والرخص التي يقدمها المذهب عكس تشدد بعض المذاهب السنية (المالكية والحنابلة أو السلفية اليوم) كرخصة الجمع بين الصلوات، والزواج المؤقت.

وعلى مستوى الأدوات، نجد تكاثر القنوات الفضائية الشيعية (الزهراء، الغدير، الإمام الحسين، الفرات...) خصوصاً بعد سقوط نظام صدام حسين وصعود حكومة ذات أغلبية شيعية، وحتى من داخل عدد من دول الخليج كالكويت التي تزداع منها قناة الأنوار، دون الحديث عن قناة العالم الإيرانية والمنار التابعة لحزب الله اللبناني، والتي تتبنى نهج المقاومة في المنطقة أو قناة الإيمان التابعة لمرجعية السيد محمد حسين فضل الله، حيث لعبت هاته القنوات دوراً كبيراً في تعريف الرأي العام الإسلامي في الدول السنية بالشيعة، مما حفز فضائيات أخرى محسوبة على التيار الوهابي خصوصاً بالرد عبر خلق قنوات جديدة كقنوات صفا ووصال والناس... بغية خلق نوع من توازن النفوذ الأيديولوجي.

وتستمر المعركة على الوسائط الاجتماعية للإعلام البديل، عبر خلق الآلاف من المواقع والصفحات على الفيسبوك، يبقى من أشهرها في الجانب الشيعي «موقع المجمع العالمي لأهل البيت»⁽⁹⁾ و«مركز الأبحاث العقائدية»⁽¹⁰⁾ حيث يحتوي الموقعان على مكتبات صوتية ومرئية وورقية تعالج مختلف المجالات العقيدية والفقهية والتاريخية، إلى جانب نبذة عن تجارب المستبصرين، وخرائط لانتشار أهم المراكز والمؤسسات الشيعية عبر العالم.

(9) بوابة الجامعة لأهل البيت، على الرابط التالي:

www.ahl-ul-bayt.org

(10) موقع مركز الأبحاث العقائدية، على الرابط التالي:

www.aqaed.com

في الجانب الميداني، يبقى حضور الكتاب الشيعي شبه غائب؛ حيث يبقى المعرض الدولي للكتاب، الذي ينظم في مدينة الدار البيضاء، من الفرص النادرة لاقتنائه، ولو أن الوزارة الوصية على الثقافة منعت الكثير من دور النشر الشيعية من عرض كتبها، خصوصاً بعد قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيران على خلفية قضية البحرين.

وشخصياً، كنت أتردد على مكتبة مدينة العلم التي فتحها صاحبها (المعرف بالحاج) في أحد الأحياء الراقية بمدينة الدار البيضاء، وقد كانت تستقطب نخبة من المتشيعين المغاربة من مختلف المدن المغربية، قبل أن يصدر قرار بإغلاقها من طرف السلطات، بعد قطع المغرب علاقاته الدبلوماسية مع إيران.

كما لا يمكن إغفال دور الجالية المغربية من بلجيكا (مركز القائم) وهولندا (جمعية الهادي) في هذا الإطار، حيث يسهر على توجيه هؤلاء مشايخ من المشرق (إيرانيين وعراقيين ولبنانيين وحتى من بعض دول الخليج بما فيها السعودية، وقد حضر الباحث خلال زيارته المتكررة للمكتبة بين عامي 2000 و2008 عدداً من الدروس التي ألقاها عدد من المشايخ، الذين جاء بعضهم من أوروبا وبعضهم من بعض دول المشرق.

ويبقى دور السفارة الإيرانية ضعيفاً في هذا المجال، حيث تم تبادل بعض الزيارات بين البلدين لتفعيل التواصل الثقافى وتجاوز الخلاف المذهبي، فحضر بعض العلماء الشيعة من إيران عدداً من الدروس الحسنية في عهد الملكين: الحسن الثاني (رحمه الله) ومحمد السادس، ومن بينهم الشيخ جعفر السبحاني قبل قطع العلاقات الدبلوماسية سنة 2009، كما زار أيضاً عدد من المسؤولين في وزارة الأوقاف الجمهورية الإسلامية في إيران، والتقوا بعض الطلبة المغاربة الذين يدرسون في الحوزة العلمية هناك. ويحكي أحد الإخوة أن إيران قد طلبت من المغرب السماح لها بتأهيل ضريح مولاي إدريس زرهون على أطراف مدينة فاس، ليصبح من أفضل المزارات الدينية في المنطقة، إلا أن المسؤولين رفضوا هذا العرض.

مسارات النخب

من بين الأسر العريقة في المغرب، والتي اشتهرت بدفاعها عن تراث أهل البيت من داخل وسط سني صوفي بالأساس، نجد أسرة الحافظ بن الصديق الغماري من طنجة، الذي تأثر أساساً بالزيدية اليمينية، وخصوصاً ابن عقيل الحضرمي، وتأثر به أخوه عبد العزيز الغماري، وعبد الحي الذي انتقل إلى بلجيكا ليصبح إماماً هناك ويلقب بأية الله الودراسي. ويعتبر عبد اللطيف السعداني من أوائل المتشيعين الذين تخرجوا في جامعة طهران سنة 1964، أي قبل قيام الثورة في إيران، والذين اهتموا أساساً بتاريخ وتراث أهل البيت خصوصاً في المغرب. كما يأتي اسم إدريس بن محمد بن أحمد الحسيني الإسماعيلي، من بين الأسماء التي درست في حوزة الشام، ومن أوائل المستبصرين المغاربة الذين دافعوا عن المذهب، حيث ألف عدداً من الكتب في أصول الخلاف بين الشيعة والسنة، من أبرزها «الخلافة المغتصبة».

ومن مكناس اشتهر حسن الإغيري المعروف بالشيرازي، حيث درس في لبنان وكان يساعد الطالبات للانتقال إلى هناك والاشتغال بمجلة عفاف اللبنانية، كما اشتهر إدريس هاني الذي حاز على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من سوريا، وألف الكثير من الكتب الفلسفية التي تسلط الضوء على التراث الفكري لدى الشيعة، يبقى من أبرزها «محنة التراث الآخر» و«ملا صدرا رائد الحكمة المتعالية» كما اشتهر أيضاً الإعلامي محمد دكير من خلال إطلالته من قناة المنار التابعة لحزب الله اللبناني.

أما فاس فقد أسهمت بعدد من الطلاب الذين تم إرسالهم إلى الدراسة في حوزة دمشق التي تدار بإشراف المرجعية في إيران، حيث يسمح لهم هذا النظام بإتمام دراستهم في الجمهورية الإسلامية، وتعد حوزة قم العلمية من أشهر الحوزات في العالم الشيعي بعد حوزة النجف الأشرف بالعراق، يقصدها الطلاب من مختلف بلاد العالم الإسلامي للدراسة. ومن بين الأشخاص الذين صادقتهم خلال علاقتي بالموالين المغاربة، أحد أبناء مدينة فاس ممن تمكنوا من الوصول إلى بحث الخارج،

وهو يضاهاى الدكتوراه من حيث الدرجة العلمية فى الحوزة، حيث أوكل إليه تدريس الفلسفة الإسلامية فى حوزة قم.

إحياء الطقوس.. عاشوراء

كانت بدايات الباحث فى التعرف على أتباع هذا المذهب فى المغرب عن طريق أحد الأساتذة، وقد كان نشيطاً فى الدعوة لهذا الخط، وساعدته تجربته فى حركة الاختيار الإسلامى على صقل مواهبه فى الإقناع، وزادته أخلاقه ثقة فى نفوس كل من يصاحبه. وقد كان أول من عرف الباحث رفقة شخص آخر على مكتبة مدينة العلم التى كان يديرها (الحاج) رفقة أخيه، حيث لم تكن هذه المكتبة مجرد فضاء لبيع الكتب الشيعية، بل كانت محطة للقاء بين المتشيعين المغاربة، وأحياناً تستقبل بعض الضيوف المشاركة من دعاة وفقهاء وناشرين، والذين كانوا يأتون من العراق وإيران ولبنان، ومن بعض دول الخليج أو الدول الأوروبية، خصوصاً من هولندا وبلجيكا.

وكان بعضهم يعطى دروساً فى الفقه أو الكلام أو العرفان، ويجب عن أسئلة المستفسرين من المغاربة الذين كانوا تواقين لمعرفة المزيد عن تفاصيل المذهب وأصول الخلافات لمواجهة المخالفين، وخصوصاً الوهابية السلفية، التى كان نفوذها قد تنامى، بعد نجاح تجربة دور القرآن فى المغرب، وكان الكثير من دعائهم وشيوخهم يكفرون الشيعة ويروجون للكثير من المغالطات حول مذهبهم من على منابر المساجد التى يؤمنون فيها، أو المنابر الإعلامية التى كانت تستضيفهم. وقد حذر الكثير من وجوههم كالزمزمى والفيزازى والمغراوي من تنامي الخطر الشيعي - حسب توصيفهم - تحديداً بعد الانتصارات التى حققها حزب الله اللبنانى ضد الآلة العسكرية الصهيونية.

وفرت المكتبة للموالين فرصة لإحياء بعض الأوراد والطقوس التى دأب عليها أتباع هذا المذهب، كقراءة دعاء كميل ليلة الجمعة، وذلك فى غرفة جانبية جهزت أساساً لهذا الغرض، وإحياء بعض المناسبات الخاصة بأهل البيت كولادة أو وفاة أو استشهاد أحد الأئمة، وذلك قبل أن يتطور استقبال المستبصرين الجدد فى منازل الموالين القدماء.

تحتفظ عاشوراء بمكانة خاصة لدى الشيعة عموماً، إذ تمثل أكبر مأساة وقعت لأهل بيت الرسول، وذلك بقتل حفيده الإمام الحسين، وذلك بعد أن خرج الحسين ثائراً على يزيد بن معاوية بعد أن دعاه أهل الكوفة لبياعوه إماماً، حتى كان فقهاؤهم يقولون: الإسلام محمدي الوجود، حسيني الاستمرار. لذلك فإنهم يستعدون لإحياء هذه الذكرى بكل تفاصيلها، ومن ذلك تجهيز الفضاء، حيث يحول المضيفون بيوتهم إلى ما يشبه الحسينيات التي يلقي فيها الخطباء دروسهم في الفضائيات الشيعية. وذلك بتعليق صور الحسين رفقة أبيه الإمام علي وأخيه الإمام الحسن، أو لوحده يواجه جيش يزيد وهو يرفع صيهاً تخترقه سهام، أو بعض أهله وأصحابه ممن قاتل وقتل معه في أرض المعركة، كالعباس الذي يقبونه بقمر بني هاشم، وذلك في إزارات سوداء مطرزة. وقد يتم استضافة أحد الشيوخ لقراءة إحدى اللطميات التي تردد في مثل هذه المناسبات⁽¹¹⁾ وعرض تفاصيل واقعة كربلاء على الحضور في جو جنائزي، حيث لا يقتصر هذا الحضور على الرجال فقط، بل إن الكثير من الموالين يحضرون نساءهم وأبناءهم أيضاً، فقد كان يعلو النحيب والبكاء عادة من غرف مجاورة، وبعد أن تهدأ العواطف يتبادل الحضور التعازي بعبارات مثل «عظم الله أجورنا وأجوركم باستشهاد أبي عبد الله الحسين». وفي الختام يوزع أصحاب البيت الشاي والفواكه الجافة على الحاضرين، وعادة ما يقدم الكسكسي في وجبة العشاء. وقد يتم إحياء أربعينية الإمام الحسين بالطريقة نفسها.

الخاتمة

تعرض هذه الورقة للمسارات التي قطعتها ظاهرة التشيع داخل المغرب، ووسائل الاستقطاب التي استخدمها القيمون على المذهب في الداخل والخارج، وتقدم مسارات ظاهرة التشيع، وكذا بعض النخب التي اعتنقت هذا المذهب في المغرب. ونختتم بلمحة عن تجربتنا الخاصة مع عدد من الموالين المغاربة من خلال إحياء بعض الأوراد والمناسبات التي يحتفظ لها أتباع هذا الخط بمكانة خاصة.

(11) يقوم الرواديد (جمع رادود) عند الشيعة بتلحين وأداء اللطميات وإخراجها في أشربة تباع لجمهور الشيعة، ومن أفضل الرواديد في العالم الشيعي نجد باسم الكربلائي.